بلاغة الغياب في الشعر الجاهلي: البنية، التأويل، والتأثير العاطفي

إعداد

أ.م.د. فرقان محمد عزيز

كلية التربية الأساسية – جامعة المثنى

الجامعة الإسلامية بمنيسوتا
Islamic University of Minnesota
IUM المركز الرئيسي

الملخص:

تفصح بلاغة الغياب في الشعر الجاهلي بوصفها بنية فكرية وجمالية عن وعي الإنسان العربي بالوجود، والزمن، والآخر. فالغياب في النص الجاهلي لا يُمثّل فجوة أو فراغًا دلاليًا فحسب، وانما قيمة بلاغية مولّدة للمعنى، تتجلّى من خلال البنية المكانية والزمانية والصوتية والصورية. ومن هذا المنظور،عندها يكون الطلل، والرحيل، والحنين، والصمت، رموزًا تكشف عن صراع الذات بين الفناء والبقاء، بين الحضور والغياب.

فالقصيدة الجاهلية ليست وثيقةً تاريخية فحسب، بل فضاء تأويلي مفتوح تُسهم فيه الذات القارئة مثلما يسهم الشاعر في لحظة الإبداع. ومن هنا يتجلّى مبدأ العدالة الجمالية الذي يمنح الغائب والمسكوت عنه قيمةً موازيةً للمُصرَّح به، تعبيرًا عن العدل والمساواة في بنية الوجود الإنساني.

هذا وتظهر أهمية الدراسة نحو التعليم الجيد والمعرفة التأويلية في إعادة قراءة التراث قراءة عادلة ومنصفة تُعيد للشعر الجاهلي مكانته الفكرية والإنسانية. فالغياب، في جوهره، ليس انطفاءً، بل إشراقٌ من نوع آخر، تتكوّن منه اللغة بوصفها ذاكرةً، ويتشكّل به الإنسان بوصفه كائنًا يسعى إلى الخلود عبر الكلمة.

الكلمات المفتاحية:
الغياب، الحضور، الشعر الجاهلي، العدالة الجمالية، المساواة، التأويل، التعليم الجيد.

ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online

Abstract :

The rhetoric of absence in pre-Islamic poetry, as an intellectual and aesthetic structure, reveals the Arab's awareness of existence, time, and the other. Absence in pre-Islamic texts does not merely represent a gap or semantic void, but rather a rhetorical value that generates meaning, manifested through spatial, temporal, phonetic, and visual structures. From this perspective, the ruins, departure, longing, and silence become symbols that reveal the self's struggle between annihilation and survival, between presence and absence.

The pre-Islamic poem is not simply a historical document, but an open interpretive space in which the reader participates just as the poet does in the moment of creation. Hence, the principle of aesthetic justice is revealed, granting the absent and the unspoken a value equal to that expressed, reflecting justice and equality in the structure of human existence.

This highlights the importance of studying the subject for the sake of quality education and interpretive knowledge, enabling a fair and equitable re-reading of the heritage that restores pre-Islamic poetry to its rightful intellectual and humanistic standing. Absence, in its essence, is not extinction, but rather a different kind of illumination, from which language is formed as a memory, and through which man is formed as a being who seeks immortality through the word.

Keywords: Absence, Presence, Pre-Islamic Poetry, Aesthetic Justice, Equality, Hermeneutics, Quality Education.

ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online

التمهيد : مفهوم الغياب وبلاغته

◆ الغياب في المعاجم اللغوية والدراسات البلاغية

◆ الغياب في المعاجم اللغوية

الغياب في اللغة : الستر والخفاء ؛ فهو الانقطاع عن الحضور الحسي أو المعنوي ، فالغِيابُ والغَيْبُ: نَقِيضُ الحُضور [1]؛ أي : غاب الشيءُ غَيْبًا وغَيَبانًا: استتر، والغَيبةُ: البُعدُ عن القوم [2] ؛ ذلك ان الغين والياء والباء أصل صحيح يدل على تستر الشيء عن العيون، يقال: غاب الرجل إذا استتر، وكل ما غُيِّب فقد غاب [3] ؛ لذا يستعمل للدلالة على الانفصال المكاني او الزماني او العاطفي ؛ وقد تمتد دلالاته لتشتمل الاغتراب والبحث عن الهوية والانتماء .

◆ الغياب في الدراسات البلاغية

لدال الغياب في البلاغة مدلولا له بعدا جماليا يتجلى في اسلوب الحذف والإضمار والسكوت فضلا عن التضمين والكناية ، ومما ينطوي عليه البديع من تورية وحسن ابتداء وانتهاء وغير ذلك؛ لانه يمثل "التعبير عن الشيء بغيابه أقوى تأثيرًا من حضوره في كثير من المواضع، إذ يدع المجال للخيال ليرسم المشهد في ذهن المتلقي" [4] ؛ فـ "حين يُغيب الموصوف ويبقى أثره، يكون الإيحاء أبلغ من التصريح" [5] ؛ وبذلك جمع بين الغياب والتخييل باسلوب يجعل المتلقي يشعر بالفقد وأنه حاضر فالبلاغة بحسب رأي الجرجاني في نظريته عن النظم تقوم على ما يُفهم من علاقات الألفاظ، لا من الألفاظ ذاتها، فالمعنى الغائب المولّد من التراكيب هو مناط الجمال الحقيقي في القول [6]. وهنا يلتقي مع جوهر مفهوم الغياب، إذ يجعل

1- ظ : الفيروزآبادي، القاموس المحيط ، تحقيق: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط4، 2005 ، ص720.

2- ظ : ابن منظور، لسان العرب ، دار صادر، بيروت، 1997، ج6، ص340 .

3- ظ : ابن فارس، مقاييس اللغة ، تحقيق: عبدالسلام هارون، ط3، دار الفكر، بيروت، 1979 ، ج3، ص456.

4- عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة ، تحقيق: محمود شاكر، دار المدني، جدة، ط1، 1991 ، ص98

5- السكاكي، مفتاح العلوم ، تحقيق: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1987، ص215.

6- ظ: عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق: محمود محمد شاكر، الطبعة الثانية، دار المدني، جدة، المملكة العربية السعودية، 1992، ص 77 .

ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online

من المسكوت عنه جزءًا من فعل البيان ذاته.

وهي على وفق ما اشار قدامة بن جعفر لا تتحقق بتمام القول، بل بما "يُحوج القارئ إلى تأمل ما وراء اللفظ"[7] ؛ فالصمت البلاغي أو الحذف ليس نقصًا بل عنصرًا من عناصر الكمال الجمالي.

هذا وقد افرد ابن رشيق القيرواني في العمدة إشارات متفرقة إلى قيمة "الاختصار والإيجاز" بوصفهما صنعة فنية تقوم على إحداث أثرٍ بأقل قدر من القول[8]، ويقترب في ذلك من جوهر بلاغة الغياب؛ لأنه يُعوَّل على دلالة الغائب أكثر من دلالة الحاضر.

بذلك فقد أسس التراث البلاغي لمفهومٍ الغياب عبر تناوله للحذف والكناية والتضمين، وإن لم يصرح بمصطلحه؛ ذلك أن تلك المباحث تشي بوعيٍ عميق بأن البلاغة لا تُختزل في القول، بل في ما يُحيل إليه القول، وما يتوارى خلفه من مدلولات[9] ؛ كونه يدل على ما لم يقل مباشرة، ذلك "إن ترتيب الكلام يُفضي إلى أن يُفهَم المعنى وإن لم يُصرّح به" [10]

إذ ان "الغياب في النص الأدبي ليس مجرد نقص، بل هو دلالة مضمرة تعيد تشكيل الحضور"[11] كونه مظهرا من اللاوعي سواء اكان غياب الاب ام الحبيبة ام المكان ... الخ ؛ لأنه يشير الى الرغبة المكبوتة ، أو الصدمة[12] ؛ فالحنين إلى الأماكن الغائبة مثلا يُعيد تشكيل النص الشعري كحلم[13] فهو قوة بنائية في اللغة، تُنتج المعنى وتؤجله في

7- قدامة بن جعفر، نقد الشعر، تحقيق: كمال مصطفى، القاهرة: دار الكتب، 1952، ص 91.

8- ظ: ابن رشيق القيرواني، العمدة في صناعة الشعر ونقده. بيروت: دار الجيل، 1981، ص 214.

9- ظ: عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق: محمود محمد شاكر، الطبعة الثانية، دار المدني، جدة، المملكة العربية السعودية، 1992، ص 113 .

10- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق: محمود محمد شاكر، الطبعة الثانية، دار المدني، جدة، المملكة العربية السعودية، 1992، ص 112 .

11- Paul Ricoeur, Interpretation Theory: Discourse and the Surplus of Meaning, Texas Christian University Press, 1976, p. 74.

12- ظ: سيغموند فرويد، تفسير الأحلام، ترجمة: مصطفى صفوان،الطبعة الثانية، دار الطليعة، بيروت، لبنان، 1991، ص 113-114. ؛ كارل غوستاف يونغ، الإنسان ورموزه، ترجمة: أحمد عبد الله، الطبعة الأولى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، 1993، ص 198-200.

13- ظ: غاستون باشلار، جماليات المكان، ترجمة: غالب هلسا،الطبعة الخامسة، دار دمشق، دمشق، سوريا، 2006، ص 145.

ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online

آن [14]؛ مما يعزز البنية الدلالية في النص الشعري؛ فكل نص أدبي يشتغل على ما لا يقوله أكثر مما يقوله ، ومن ثم مساحة لاستجابة المتلقي[15] ؛ كونه يرتبط تارة بفكرة النستالجيا والبحث عن المفقود ؛ فيعبر عن الفقدان عبر إعادة تشكيله في صورة نصية تتيح للمتلقي معايشة التجربة من جديد[16] ، وتارة يمثل شبكة من العلامات التي تكشف عن الغائب أكثر مما تُظهر في الحاضر فكل نص هو فضاء للغياب، إذ لا يمكن للكلمات أن تقول كل شيء، وما هو غير منطوق يظل حاضرًا بين السطور[17] مجسدا طاقة تولويدية للدلالة تتيح تعدد التأويلات داخل النص الشعري ؛ عندها يفتح المجال للقراءة المفتوحة التي تمكن القارئ من إكماله على وفق تجربته الخاصة[18] . ومن ثم فإن البلاغة فن إدارة الغياب عبر تقريب المسافات بين الجمل والبياضات النصية والمسكوت عنه جزءا من جمالية النص.

وعليه فالغياب بلاغيا هو توظيف المسكوت عنه في النص لإنتاج مدلولات مضاعفة يتكامل فيها الصمت مع القول، فيتحول الغائب الى مصدر لجماليات المدلول عبر مستويات عدة منها: "اللغوي: الحذف والإضمار والإيجاز"، "الصوري: حضور الأثر والظل والفجوة بوصفها رموزاً للغياب"، "الإيقاعي: توظيف الصمت أو الانقطاع النغمي لإحداث الأثر"، " المستوى التأويلي: انفتاح المعنى على الغائب والمسكوت عنه"؛ عندئذ تصبح بلاغة الغياب إطارا تأويليا لفهم الشعر الجاهلي؛ إذ يُعاد النظر في عناصره التقليدية — كالطلل والرحيل والفقد — بوصفها تجليات جمالية لغيابٍ يتكثف في اللغة ويولّد منها.

14- ظ: جاك دريدا، الكتابة والاختلاف، ترجمة: كمال أبو ديب،الطبعة الأولى، دار الكلمة، بيروت، لبنان، 1986، ص 19-21.

15- ظ: صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط2، 2002 ، ص167؛ فولفغانغ إيزر، فعل القراءة: نظرية في الجماليات التأويلية، ترجمة: عبد الرحمن أيوب،الطبعة الأولى، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء - المغرب، 1995، ص 74.

16- Looke at: Georg Lukács, The Theory of the Novel, MIT Press, 1971, p. 112.

17- Looke at: Roland Barthes, The Rustle of Language, University of California Press, 1986, p. 67.

18- ظ: بارت، "لذة النص" ، ترجمة: محمد برادة، دار التنوير، بيروت، 1987 ، ص78.

ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online

المبحث الأول: بلاغة البنية:

1- الغياب في البنية الزمكانية في الشعر الجاهلي:

لعل من أبرز المظاهر النصية التي تتجلّى فيها بلاغة الغياب في الشعر الجاهلي؛ الغياب الزمكاني، فالشاعر الجاهلي، وهو يعيش في بيئة الصحراء القاسية، يرى في المكان والزمن وجهين لجوهرٍ واحدٍ هو الغياب؛ كونه جزءاً من وعيه الوجودي، وتكوينه الجمالي، ومن ثم لا يمثل تجسيده في الشعر تأطيرا سرديا أو ظاهرة اسلوبية، بل هو بنية دلالية تعبّر عن العلاقة بين الإنسان والمكان، وبين الذات والزمن، بوصفهما فضاءين يتقاطع فيهما الوجود والعدم.

فالمكان يتحوّل إلى أثرٍ بعد أن كان دارًا، والزمن يصير ذكرى بعد أن كان حياة. وعليه تمثل بلاغة الغياب البنية المركزية التي تنظم الشعر الجاهلي، عبر تتفاعل ثنائية الحضور والغياب لتصوغ تجربة إنسانية تتجاوز حدود القول إلى عمق الوجدان ، ذلك أنها تكشف عن الوعي البلاغي العميق الذي يحكم تأليف النص الجاهلي، وعن الطاقة التأويلية التي تتيحها مفارقة الحضور والغياب في هذا الشعر[19] ، وعلى النحو الآتي:

❖ الغياب المكاني في الشعر الجاهلي:

➡ الأطلال:

يُعدّ "الطلل" أول تمظهر بلاغي للغياب المكاني في الشعر الجاهلي. فهو مكان خالٍ، لكنّه ليس فراغًا، بل فضاء مشحون بالحنين والذاكرة، يختزن حضورًا غائبًا. يقف الشاعر أمامه ليستحضر ما كان فيفتتح القصيدة به ويستدعي غيابه، عندها يتحوّل الغياب إلى خطابٍ وجوديّ يمزج بين الحزن والتأمل. وهذه المفارقة هي جوهر بلاغة الغياب المكاني؛ ومنه ما قاله امرؤ القيس :

قِفا نَبكِ من ذِكرى حبيبٍ ومنزلِ بسِقطِ اللِّوى بينَ الدَّخول فَحَوْمَلِ[20]

19- ظ: ابن طباطبا العلوي، عيار الشعر. تحقيق: عباس هاشم، بيروت: دار الفكر العربي، 1997، ص 42 - 45.

20- امرؤ القيس، ديوان امرئ القيس، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة: دار المعارف، ط4، 1985، ص 5.

ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online

إذ بين ان الطلل ليس مجرد موضعٍ مهجور، بل علامة بلاغية كثيفة تدل على الحضور الغائب للمحبوبة؛ ذلك أن الفعل "قِفا" يجمّد الحركة، ويحوّل المشهد إلى لحظة استدعاء للغياب، إذ تتداخل الذكرى بالحسّ، فيغدو البكاء لغةً بلاغيةً بديلة عن القول ؛ لأنه يُدخل المتلقي في حالة تأملٍ شعوري للغياب، ذلك أن المنزل الغائب يُستدعى من الذاكرة عبر الإشارة المكانية الدقيقة، الاّ أن دقّتها لا تدل على حضورٍ واقعيّ بل على حنينٍ مؤلم إلى الغياب[21] .

وقد لاحظ عبد القاهر الجرجاني أنّ البلاغة لا تكمن في التصريح بالمعنى، بل في الإشارة إليه عبر علاقات الألفاظ، أي في "ما يُفهم مما لا يُقال"[22] .

ومن ثم تتحوّل الديار الخالية إلى نصٍّ بلاغيٍّ صامتٍ يختزن دلالات الحنين والفقد. ويعزز ذلك ما ذهب اليه كمال ابو ديب بأن الطلل هو التجسيد المكاني للفقد، وهو لغة الصمت التي يبدأ منها الشعر العربي؛ ذلك أنه في بنيته الرمزية ليس مجرد إطارٍ مكاني؛ وانما مسرحٌ لتمثيل العلاقة بين الإنسان والزمن، بين الوجود والفناء، حيث يُصبح المكان وسيلةً لاستحضار الغياب واستنطاق الصمت[23] ؛ فالمكان الخالي لا يُنهي المعنى بل يفتحه على التأويل. ومن ثم يتجلّى الطلل كعلامة بلاغية كبرى تؤسس لما يمكن تسميته بـ بلاغة المكان الغائب.

الرحيل:

يمثل الرحيل الغياب المتحرك في المكان بعدما مثّل الطلل الغياب الساكن؛ . إذ يغادر الشاعر الجاهلي الأطلال بعد أن يقف عليها في رحلةٍ لا تنتهي، فيتحول المكان إلى حالة دائمة من الفقد؛ لأن الرحيل في الشعر الجاهلي ليس انتقالًا مادياً (جغرافياً) فحسب، وإنما حركة داخلية تعبّر عن الاضطراب النفسي، وعن البحث عن معنى الوجود

21- ظ: عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق: محمود محمد شاكر، الطبعة الثانية، دار المدني، جدة، المملكة العربية السعودية، 1992، ص 112 - 119 .

22- ظ: المصدر نفسه، ص 88.

23- ظ: كمال أبو ديب، جدلية الخفاء والتجلي: دراسة في بنية الشعر العربي. بيروت: دار الآداب، 1981، ص 73.

ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online

في مواجهة العدم؛ ومن ثم هو تجسيدٌ بلاغي للتيه والبحث عن الذات.

ومنه قول الشاعر:

وَلَيلٍ كَمَوجِ البَحرِ أَرخى سُدولَهُ عَلَيَّ بِأَنواعِ الهُمومِ لِيَبتَلي
وَظَلَّ طُهَاةُ اللَّحمِ مِن بَينِ مُنْضِجٍ صَفِيفَ شِوَاءٍ أَوْ قَدِيرٍ مُعَجَّلِ[24]

ففي البيت الاول جعل الشاعر من الليل فضاء للرحيل النفسي والداخلي، إذ يتحوّل المكان إلى معادلٍ للانفصال والاغتراب؛ كون الغياب لا يُصاغ بالوصف المكاني فقط، بل بالتحول الوجداني الذي يرافق الرحلة. فالشاعر يُبحر في المكان مثلما يُبحر في ذاته، حينها يغدو الغياب بنية حركية تنتج الدلالة عبر الاستمرار في التيه[25] .

اما في البيت الثاني فقد وصف الشاعر مشهد الرحلة، بصياغة يتوارى خلف مدلولها الوعي بالفناء؛ إذ تطهي الحياة نفسها ت، ويُقدَّم الوجود للنار كما يُقدَّم اللحم. وهي صورة بلاغية للغياب المتكرر في مسير الرحلة[26] .

وفي بيت عنترة بن شداد:

فَوَدِدتُ تقبيلَ السُّيوفِ لأنَّها لمعتْ كبارقِ ثغركَ المتبسِّمِ[27]

تتجلّى المفارقة البلاغية:؛ إذ جعل الشاعر في غياب المحبوبة حضورها، إذ خلق من لمعان السيوف (رمز الموت) حضورًا للحياة والجمال. عندها تحوّل الغياب المكاني إلى حضورٍ استعاريٍّ مكثف .

وعليه فإن الرحيل في بنيته العميقة يمثل بلاغة الحركة في الغياب، فكلّ اتجاهٍ في الصحراء يقود إلى الفراغ، وكلّ وصولٍ يؤكد استحالة الوصول.ويعزز ذلك ما اشار اليه عبد الملك مرتاض وهو أنّ "الرحلة

24- امرؤ القيس، ديوان امرئ القيس، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة: دار المعارف، ط4، 1985، ص 35و37.

25- ظ: ابن رشيق القيرواني، العمدة في صناعة الشعر ونقده. بيروت: دار الجيل، 1981، ص 204.

26- ظ: أحمد مطلوب، البلاغة العربية: تطور وتاريخ. بغداد: دار الشؤون الثقافية، 1990، ص 123.

27- عنترة بن شدّاد، ديوان عنترة بن شدّاد العبسي، تحقيق مهدي محمد ناصر الدين، بيروت: دار الكتاب العربي، 1983، ص62.

ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online

الجاهلية ليست حراكاً في المكان، بل هي حراكٌ في الوعي، يعبّر عن بحثٍ مأساوي عن المعنى، وعن مقاومة الفراغ الذي يخلّفه الغياب"[28].

ومن ثم يتجلّى الغياب المكاني في الشعر الجاهلي عبر ثنائية الطلل – الرحيل، فهما قطبا بلاغة الغياب في بنية المكان: الغياب الساكن والغياب المتحرك.

المكان الرمزي:

يظهر الغياب المكاني في الصور الرمزية التي تُمثّل فراغاً أو خواءً؛ نحو الصحراء، السراب، الظل ... الخ

لا يقف الغياب المكاني عند الطلل والرحيل، بل يمتد إلى الصور الرمزية الكبرى في الشعر الجاهلي: الصحراء، السراب، الأثر، الظل.

فتلك الصور ليست مجرد محيطٍ طبيعي بل فضاء دلالي للغياب ؛ ومن ثم أدوات بلاغية تبني فضاءً من الفراغ الموحِي، إذ تُصبح الأشياء علامات للعدم أكثر من كونها حضوراً ماديا؛ عندها يتحول الصمت والبياض إلى علامات دلالية.

فصحراء الجاهلية على وفق وصف صلاح فضل هي "فضاء للغياب اللامتناهي، لأنّ اتساعها وامتدادها يجعلان الوجود الإنساني فيها لحظةً هامشيةً عابرة؛ ففيه تتبدّد الذات مثلما يتبدّد الصوت في المدى، لتتحول عندها الطبيعة إلى مرآةٍ للعدم"[29] .

ومنه في قول زهير بن أبي سلمى:

وَمَا الحَربُ إِلاَّ مَا عَلِمْتُم وَذُقْتُمُ وَمَا هُوَ عَنْهَا بِالحَدِيثِ المُرَجَّم[30]

فالمعرفة ليست من الحضور وانما من التجربة الماضية، من الغياب الذي صار ذاكرة ، أي حضور التجربة وغياب الوهم؛ فقد حول الشاعر فعل "العلم والذوق" إلى معيارين للحقيقة، معبّرا عن بلاغة الحضور

28- عبد الملك مرتاض، بلاغة الخطاب الشعري. الجزائر: منشورات دار الأمة، 2002، ص 133.

29- ظ: صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1992، ص 156 - 164.

30- زهير بن أبي سُلمى، ديوان زهير بن أبي سلمى، تحقيق فخر الدين قباوة، بيروت: دار المعرفة، 1983، ص 41.

ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online

الواقعي في مواجهة الغياب الخطابي.عندها تتجسّد بلاغة "الأثر".
وعليه يصبح المكان في الشعر الجاهلي خطابًا منسوجًا بالغَياب، لا يُقال فيه إلا بقدر ما يُخفى، فينتج تأثيرًا بلاغيًا أساسه الدلالة المضمَرة.

❖ الغياب الزمني في الشعر الجاهلي:

➡ الزمن الماضي:

يعيش الشاعر الجاهلي في زمنٍ تتجاوز فيه الذاكرةُ الواقعَ. فالماضي لديه هو زمن الحضور المكتمل، الذي يُستدعى في النص كقيمةٍ جمالية وروحية؛ أي انه يعيش بين بين زمنين متناقضين: ماضٍ مكتمل يراه زمن الكمال، وحاضرٍ منقضٍ يراه زمن الفقد. هذا الوعي المزدوج بالزمن هو ما يُنتج بلاغة الغياب الزمني. ومنه استدعاء الشاعر يوم الرحيل الذي مضى في:

كَأنّي غَداةَ البَينِ يَومَ تَحَمَّلوا لَدَى سَمراتِ الحَيِّ ناقِفُ حَنظَلِ[31]

فقد أنتج حضورًا وهميًا؛ ذلك ان الماضي لا يعود، الا انه يُستدعى عبر الصورة الشعرية، فتتولّد بلاغة الغياب الزمني من استحالة الاسترجاع[32] ، فالشاعر يشبه نفسه في لحظة الفراق بـ"ناقف حنظل" أي من يقشّر الحنظل المرّ؛ ليعبّر عن قسوة الألم والمرارة الوجدانية التي تصاحب الرحيل. عندها
تُحوّل الصورة الغياب من حدث واقعي إلى تجربة حسّية داخلية، إذ تمتزج المرارة المادية بطعم الغياب العاطفي، فيتولد من ذلك تأثير بلاغي عميق أساسه الإيحاء بالألم عبر التذوّق.
لذلك يرأى ريكور أنّ "الزمن السردي هو وسيلة الوعي الإنساني لتجسيد الغياب؛ فالحكاية لا تروي ما حدث فحسب، بل ما لم يعد موجوداً. أي انها تُعيد تشكيل الماضي في صورة الحاضر من دون أن

31- امرؤ القيس، ديوان امرئ القيس، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة: دار المعارف، ط4، 1985، ص 6.

32- ظ: عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق: محمود محمد شاكر، الطبعة الثانية، دار المدني، جدة، المملكة العربية السعودية، 1992، ص 223 .

ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online

تستعيده فعلًا"[33] .

وذلك ينطبق على الشعر الجاهلي كونه يحوّل الماضي إلى رمزٍ للحضور الضائع، ويستعيده بلغةٍ تحوّل الغياب إلى فنٍّ للتذكّر.

الحاضر المنقضي:

يظهر الحاضر في الشعر الجاهلي، في مقابل الماضي الممتلئ بالمعنى؛ بوصفه زمن الغياب الحقيقي، فهو زمن الانفصال والتيه.. فالشاعر لا يعيش اللحظة، بل يستشعر نهايتها. ذلك أنّ حضور الحاضر لا يعني الفعل، بل الجمود. ففي قول عنترة بن شداد:

ولَقَد ذَكرتُكِ والرِّماحُ نَواهِلٌ مِنّي، وبِيضُ الهِندِ تَقطُرُ مِن دَمي[34]

استحضر غياب المحبوبة في لحظة الحضور القاتل، إذ توقّف الزمن بين الحياة والموت، عندها تحول الحاضر إلى زمنٍ مجمّد، وتعطلت فيه الحركة الواقعية ليشتغل الغياب بوصفه الفاعل الرئيس في النص. أي ان الشاعر قد اشبع الحاضر بالغياب؛ فقد حضر الموت وغابت الحياة، وتجلت الذكرى في قلب المعركة. ومن ثم تحولت اللحظة الراهنة إلى زمنٍ متصدّع يشتغل بلاغياً على تداخل الأزمنة[35] .

فالشاعر الجاهلي - بحسب عبد الملك مرتاض - يعيش في الحاضر كمن يعيش في هوّة بين زمنين، فهو يرى الماضي من بعيد ولا يستطيع بلوغه، ويخشى المستقبل فلا يثق به، فيعيش الغياب المستمر[36]، وقد لاحظ كمال أبو ديب أنّ الشعر الجاهلي "يُقيم مفارقةً زمنية حادّة بين الماضي المضيء والحاضر المظلم، بحيث يصبح كل حضورٍ فعليّ ضرباً من الغياب الرمزي "[37].

ومن ذلك فبلاغة الغياب الزمني تُبنى على جدلية التذكّر والانتظار:

33- Ricoeur, Paul, Time and Narrative, Vol. 1, Chicago: University of Chicago Press, 1984, p 107.

34- عنترة بن شدّاد، ديوان عنترة بن شدّاد العبسي، تحقيق مهدي محمد ناصر الدين، بيروت: دار الكتاب العربي، 1983، ص 59.

35- ظ: ابن رشيق القيرواني، العمدة في صناعة الشعر ونقده. بيروت: دار الجيل، 1981، ص 198.

36- ظ: عبد الملك مرتاض، بلاغة الخطاب الشعري. الجزائر: منشورات دار الأمة، 2002، ص 221.

37- كمال أبو ديب، جدلية الخفاء والتجلي: دراسة في بنية الشعر العربي. بيروت: دار الآداب، 1981، ص 115.

ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online

الأول يُعيد ما غاب، والثاني يُؤجّل ما لن يأتي.

ويلحظ مما سبق تواشج البعدين المكاني والزماني؛ مكونان البنية البلاغية للغياب في الشعر الجاهلي فكلّ حضورٍ مكانيٍّ يستدعي زمنًا غائبًا، وكلّ ذكرٍ للزمن يتجسد في أثرٍ مكانيٍّ مفقود. أي انهما "يذوبان في بعضهما ليشكّلا وحدة بلاغية تُنتج المعنى عبر المفارقة بين الغياب والحضور"[38].

فالطلل، في جوهره، ليس مكاناً فحسب، بل زمنٌ متجسّد، كما أن الرحيل ليس حركة في الفضاء، بل في التاريخ الشخصي للشاعر[39]، وقد وصف صلاح فضل ذلك بقوله: ان "الغياب المكاني في الشعر الجاهلي هو تجسيد بصريّ للزمن الغائب، كما أن الزمن الغائب هو الصدى الوجداني للمكان المفقود"[40].

وعليه فإنّ الغياب في البنية الزمكانية للشعر الجاهلي ليس مجرد ظاهرة فنية فحسب، وانما رؤية كونية للوجود؛ ذلك ان المكان عند الشاعر ليس مسرحًا للحدث، بل شاهدٌ على الفقد. والزمن ليس تعاقبًا للحظات، بل استرجاعٌ دائم لما لم يعد ممكنًا. عندها تتحوّل الصحراء إلى رمزٍ للعدم، والطلل إلى مرآةٍ للذاكرة، والماضي إلى نداءٍ أبديٍّ للحضور المستحيل؛ ليصبح الشعر الجاهلي حينئذ خطابًا عن الغياب أكثر منه عن الحضور؛ فهو محاولة لتثبيت ما يتلاشى، فضلا عن جعل الفقد مادةً للجمال. ذلك ان كلّ بيتٍ جاهليٍّ هو في جوهره تجربة بلاغية للغياب الإنساني في الزمان والمكان معًا[41].

38- صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1992، ص 164.

39- ظ: عبد الله الغذامي، الخطيئة والتكفير: من البنيوية إلى التشريحية. بيروت: المركز الثقافي العربي، 1997، ص 138.

40- المصدر السابق، ص 171.

41- Looke at: Roland Barthes, Writing Degree Zero. New York: Hill and Wang, 1968, p 144.

ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online

2- الغياب في البنية الصوتية (الإيقاعية) في الشعر الجاهلي:

يشكّل الصوت في الشعر الجاهلي أعمق وسائط التعبير عن الذات الغائبة والحنين إلى الوجود المفقود. فالإيقاع، بما يحمله من انتظامٍ وتقطّع، ومن امتلاءٍ وصمت، يتحوّل إلى لغة ثانية داخل النص، تتكلم بما تعجز عنه الألفاظ؛ فهو أحد أهمّ مفاتيح البنية الجمالية والوجدانية، إذ لا يُعبِّر الصوت فيه عن المعنى فحسب، بل يُشارك في صنع المعنى ذاته.

فإذا كانت البنية المكانية والزمانية تمثّل فضاءين لتموضع الغياب، فإنّ البنية الصوتية والإيقاعية طريقة ظهوره الحسّي، إذ يُترجم الشاعر غيابه الوجودي في هيئة نغمٍ متقطّعٍ، وأنينٍ موسيقيٍّ يتردّد بين التكرار والانقطاع؛ ذلك أن الصوت هو حضورٌ لحظيٌّ، لكنه ينطوي في ذاته على غيابٍ دائمٍ، لأن كلّ نغمةٍ تُسمع سرعان ما تنقضي. وهكذا يتحول الإيقاع في الشعر الجاهلي إلى زمنٍ يسمع ولا يُرى، وإلى شكلٍ من أشكال الغياب الذي يتجسد في الوجود ثم يزول.

ومن ثم فان القصيدة الجاهلية لا تُقال فحسب، وانما تُسمَع وتصمت وتُغنّى، فضلا عن مشاركة كلّ عنصرٍ من عناصرها الإيقاعية — من التفعيلة إلى القافية —في إنتاج بلاغة الغياب، إذ تصبح النغمة أثرًا صوتيًا للحضور المفقود[42] ومنه في:

التكرار (صدى الغياب):

يُعدّ التكرار من أبرز الأساليب الإيقاعية التي تكشف عن حضور الغياب في الشعر الجاهلي، فهو ليس مجرد تجميلٍ موسيقي، بل فعلٌ دلاليّ يُعبّر عن الافتقاد والحنين. فكلّ تكرارٍ في النص هو استدعاءٌ صوتيٌّ لما غاب، إذ يُعيد الشاعر صدى ما لا يمكن استعادته فعلًا. ومنه في بيت الشاعر طرفة بن العبد:

لخَولَةَ أطلالٌ ببُرقَةِ ثَهمَدِ تلوحُ كباقي الوشمِ في ظاهرِ اليد[43]

42- ظ: ابن طباطبا العلوي، عيار الشعر. بيروت: دار الفكر العربي، 1997، ص 55 - 63.

43- طرفة بن العبد، ديوان طرفة بن العبد، تحقيق مهدي محمد ناصر الدين، بيروت: دار الكتاب العربي، 1984، ص 21.

ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online

إذ أنتج التكرار الموسيقي في البحر الطويل، مع تناظر القوافي الممدودة بـ"ـدي"، أثرًا صوتيًا يُشبه الصدى؛ أي صوت الغياب. ذلك أن كلُّ بيتٍ في المعلقة يُسمع وكأنّه عودة لصوتٍ مضى، مما يجعل الإيقاع نفسه تجسيدًا بلاغيًا للحضور الغائب، وقد علق عبد الملك مرتاض على ذلك بأنّ "الإيقاع الجاهلي هو نغمة الفقد؛ تكراره لا يُعبّر عن استقرارٍ بل عن رغبةٍ يائسة في الإمساك بما يتلاشى"[44]

الانقطاع الإيقاعي (الفاصلة الموسيقية) :

يتميّز الشعر الجاهلي بوجود وقفاتٍ نَغَميةٍ مفصلية بين الأشطر والبيوت، تُحدث فجواتٍ زمنيةً قصيرة بين الأصوات، وكأنّ النص يتنفس بصمتٍ ليقول ما لا يُقال؛ فالفراغ الصوتي الذي يفصل بين بيتٍ وآخر، الفراغ يُعيد توزيع الانتباه السمعي، ويجعل الصمت جزءًا من المعنى.ففي الصمت يتجلّى الغياب الصوتي بأوضح صوره. يقول لبيد بن ربيعة:

عَفَتِ الدِّيَارُ مَحَلُّها فَمُقَامُها بِمِنًى تَأَبَّدَ غَوْلُهَا فَرِجَامُهَا[45]

فقد منح الانقطاع الإيقاعي بين الشطرين القارئ فسحة صمتٍ تُعادل دلالة الفقد في المعنى؛ فبعد "محلّها فمقامها" ينكسر الصوت ليُكمل بعد صمتٍ خفيفٍ بـ"بمنى"، وهو فراغٌ دلالي يوازي فراغ المكان في الصورة[46] ؛ وقد وصف عبد القاهر الجرجاني هذا النوع من التوقف بأنه "وقفة البيان التي تَزيد المعنى وضوحًا بتركه معلقًا في النفس"[47] ؛ فالصمت في البيت ليس نهايةً للإيقاع، بل جزءًا من جماليته؛ ذلك أنه الغياب السمعي المنظَّم.

هذا واشار ابن طباطبا العلوي الى أنّ "حُسن الانتقال من بيت إلى

44- ظ: عبد الملك مرتاض، بلاغة الخطاب الشعري. الجزائر: منشورات دار الأمة، 2002، ص 193.

45- لَبيد بن رَبيعة، ديوان لبيد بن ربيعة العامري، تحقيق نوري القيسي، بغداد: دار الرشيد للنشر، 1980، ص 9.

46- ظ: كمال أبو ديب، جدلية الخفاء والتجلي: دراسة في بنية الشعر العربي. بيروت: دار الآداب، 1981، ص 126.

47- ظ: عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق: محمود محمد شاكر، الطبعة الثانية، دار المدني، جدة، المملكة العربية السعودية، 1992، ص 93 .

ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online

بيت هو من تمام البلاغة، لأنّ بينهما من الفُرجة الصوتية ما يُحدث طربًا في السمع وراحةً في النفس "[48]؛ فالفُرجة هي لحظة غيابٍ قصيرة تُهيّئ لحضورٍ جديد، فيتحوّل التناوب الصوتي إلى صورة فنية للزمن نفسه.

الوقفات الصامتة (الإيقاع بين القول والسكوت):

إن الصوت في المعلقات غالبًا ما يُترك ليتلاشى في الهواء مندون اكتمالٍ نغمي، فتتكرر الوقفات الصامتة في نهايات الأبيات، خصوصًا في القوافي الساكنة (م، ن، ل)؛ مما تمنح السامع إحساسًا بانقطاع النفس، أي بانتهاء الحضور وبدء الغياب. نحو زهير بن أبي سلمى:

ومَن لا يُصانِعْ في أمورٍ كثيرةٍ يُضَرَّسْ بأنيابٍ ويُوطَأْ بمنسمِ [49]

ففي "منسمِ"، تتوقف النغمة عند السكون؛ لتخلق فراغًا صوتيًا يُكمل فيه المتلقي المَعنى بصمته الداخلي.

عندئذ يتحول الصمت إلى لغةٍ موازيةٍ للقول، بل إلى ذروة بلاغة الغياب السمعي.

فالصمت جزء من الأيقاع؛ ذلك أن لحظة التوقف بعد تفعيلةٍ أو بيتٍ أو شطرٍ، يتكثّف المعنى الغائب أكثر مما يتكثّف في النغمة المنطوقة. وهذا ما وسمه عبد القاهر الجرجاني "فصاحة السكوت"، أي القدرة على إحداث أثرٍ بالانقطاع، لا بالاتصال[50]، فضلا عن انه يمثل في الشعر الجاهلي - بحسب كمال أبو ديب - لحظة التحول من اللغة إلى الإشارة، ومن الحضور الصوتي إلى الغياب التأويلي، إذ تصبح المسافة بين النغمات منطقة معنى جديدة[51] .

48- ظ: ابن طباطبا العلوي، عيار الشعر. بيروت: دار الفكر العربي، 1997، ص 111.

49- زهير بن أبي سُلمى، ديوان زهير بن أبي سلمى، تحقيق فخر الدين قباوة، بيروت: دار المعرفة، 1983، ص 46.

50- ظ: عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق: محمود محمد شاكر، الطبعة الثانية، دار المدني، جدة، المملكة العربية السعودية، 1992، ص 91 .

51- ظ: كمال أبو ديب، جدلية الخفاء والتجلي: دراسة في بنية الشعر العربي. بيروت: دار الآداب، 1981، ص 103.

ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online

التحولات النغمية:

الانتقال من النغمة العالية إلى الهادئة

يتدرج الصوت في القصيدة الجاهلية من الارتفاع في مطالعها إلى الخفوت في خواتيمها، وهو انتقالٌ موسيقيٌّ يُحاكي انطفاء التجربة الشعورية؛ ذلك ان الصوت في مطلع القصيدة، يكون إعلانًا للحضور، بينما يتحوّل في نهايتها إلى نغمة الفناء. ومنه قول عنترة بن شداد:

ولقد ذكرتُكِ والرماحُ نَواهِلٌ مني، وبيضُ الهندِ تقطرُ من دمي[52]

إذ انطوى الشطر الاول على إيقاعٍ قويٍّ فرضته الأصوات الصلبة (ق، د، ك، ر، ت ...)، ثم انتهت بنغمةٍ خافتة عند "دمي"، وكأنّ الصوت يذوب في الصمت. ومن ثم فان التحول النغمي قد رسم منحنىً صوتيًّا للغياب، ذلك ان الصخب البطولي تحوّل إلى سكونٍ دامٍ، عندها غدى الإيقاع نفسه تمثيلاً بلاغيًا لانطفاء الجسد واستمرار الذاكرة .

وقد أشار صلاح فضل إلى أنّ "الموسيقى الداخلية في الشعر الجاهلي تعمل كدينامية وجدانية، تتحوّل فيها الذروة الصوتية إلى رمزٍ للفقد كلما اقترب النص من الصمت "[53] .

التناظر بين الإيقاع الخارجي والداخلي:

لا تقتصر التحولات النغمية على الوزن والقافية، بل تمتد إلى الموسيقى الداخلية في تكرار الحروف والأنغام.

ففي قول لبيد بن ربيعة:

وما المالُ والأهلونَ إلا وديعةٌ ولابدّ يومًا أن تُرَدّ الودائعُ[54]

تناظر صوت الواو واللام مع حركة التكرار النغمي للبيت، فأنتج إيقاعًا

52- عنترة بن شدّاد، ديوان عنترة بن شدّاد العبسي، تحقيق مهدي محمد ناصر الدين، بيروت: دار الكتاب العربي، 1983، ص 59.

53- صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1992، ص 138.

54- لَبيد بن رَبيعة، ديوان لبيد بن ربيعة العامري، تحقيق نوري القيسي، بغداد: دار الرشيد للنشر، 1980، ص 102.

ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online

داخليًا هادئًا يعادل انطفاء التجربة.
لأن الإيقاع نفسه يعزف نغمة الرحيل، ويُعبّر عن الحنين الصامت إلى البقاء.
وعليه تكشف بلاغة الغياب في البنية الصوتية والإيقاعية عن وعيٍ مبكرٍ بأنّ الجمال لا يقوم على الامتلاء فحسب، وانما على النقص ايضا، فانّ ما لا يُقال — أو ما يُسمع ثم يزول — هو جوهر الشعر. ذلك ان كلّ بيتٍ جاهليٍّ هو في النهاية صوتٌ عابرٌ في صحراء الوجود، لا يترك إلا صدى الغياب[55] ، ومن ثم فإن الإيقاع عند الشعراء الجاهليين هو أنين الزمن المفقود، بل هو اللغة التي تتكلم بها الذاكرة حين يصمت الوجود.

3- الغياب في البنية الصورية للشعر الجاهلي:

تتأسس الصورة الشعرية في الشعر الجاهلي على جدلية الغياب والحضور؛ كونها ليست انعكاسًا عن الواقع فحسب، وانما بناءٌ تخييليٌّ يملأ فراغ الفقد بخلقٍ رمزيٍّ جديد؛ ذلك أن الصور التي يبتكرها الشاعر — سواء كانت ديارًا طُمست، أم محبوبةً غابت، أم أثرًا تلاشى — لا تكون سوى محاولاتٍ لإعادة تشكيل العالم المفقود من خلال اللغة؛ لأن بنيتها الشعر الجاهلي ليست وصفًا، وانما بحثًا عن الغائب، عندها تتحول الصورة إلى ذاكرةٍ لغويةٍ للغياب[56] .

❖ صورة الغائب (المحبوبة، الذات، والقبيلة):

◄ المحبوبة (الغياب العاطفي):

تُعد صورة المحبوبة في الشعر الجاهلي من أكثر الأشكال حضورًا للغياب. كونها موجودة في الذاكرة لا في الواقع، وفي الصدى لا في الجسد؛ ذلك أن الشاعر لا يرى المحبوبة، بل يرى أثرها في المكان أو خيالها في البصر. يقول امرؤ القيس:

55- ظ: عبد الملك مرتاض، بلاغة الخطاب الشعري. الجزائر: منشورات دار الأمة، 2002، ص 201.

56- ظ: الفيروزآبادي، القاموس المحيط، تحقيق: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط4، 2005، ص 64.

ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online

أَفاطِمَ مهلًا بَعضَ هذا التَدَلُّلِ وَإِن كُنتِ قَد أزمَعتِ صَرمي فَأجمِلي[57]

مخاطبا المحبوبة غير الحاضرة في صورةٌ متخيلة تعيد الذات عبرها إحياء الغياب. فنداء "فاطمة" هو نداءٌ الغائب، وتدلّله هو حركة الجمال في الفقد لا في اللقاء؛ عندها تتحوّل المحبوبة إلى صوتٍ من الماضي يُستعاد في الحاضر، أي إلى حضورٍ لغويٍّ لغيابٍ واقعيٍّ .

الذات الغائبة:

يعيش الشاعر انقسامًا بين وجودٍ جسديٍّ في الصحراء، وحنينٍ روحيٍّ إلى ما لا يُنال؛ لذا فان الذات الجاهلية، وإن بدت قويةً في ظاهرها، إلا أنها مأزومة بالغياب في داخلها. فـ"الأنا" في القصيدة تتحول إلى مرآةٍ للغياب، تتحدث لتؤكد أنها ما زالت حيّة بعد رحيل الآخرين. ومنه قول الشاعر:

لَخَولَةَ أَطلالٌ بِبُرقَةِ ثَهمَدِ تَلوحُ كَباقي الوَشمِ في ظاهِرِ اليَدِ[58]

فالأنا فيه متوارية خلف الصورة، تذوب في المشهد، فلا نسمعها إلا في نبرتها الحزينة. وإنّ الوشم الذي "يبقى" ليس إلا أثر الذات نفسها، كونها تحاول أن تترك علامةً بعد أن محاها الزمن.

القبيلة(الغياب الجمعي):

إنّ القبيلة في الشعر الجاهلي ليست مجرد جماعةٍ اجتماعية، بل كيانٌ وجوديٌّ وصوتيّ يشكّل الامتداد الطبيعي لهوية الشاعر؛ فعندما يغيب هذا الجمع أو يُصاب بالوهن، يشعر الشاعر بأن جزءًا من ذاته قد غاب. ومنه قول الشاعر عمرو بن كلثوم مفتخرًا بقوة قبيلته:

إذا بلغَ الفطامَ لنا صبيٌّ تخرُّ لهُ الجبابرُ ساجدينا[59]

57- امرؤ القيس، ديوان امرئ القيس، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة: دار المعارف، ط4، 1985، ص 98.

58- طرفة بن العبد، ديوان طرفة بن العبد، تحقيق مهدي محمد ناصر الدين، بيروت: دار الكتاب العربي، 1984، ص 63.

59- عمرو بن كلثوم، ديوان عمرو بن كلثوم التغلبي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة: دار المعارف، 1986، ص 210.

ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online

ففيه اعلان ظاهر عن ذروة القوة والفخر القبليّ، الا أن هذه المبالغة الخطابية تُخفي في عمقها قلقًا وجوديًّا من أفول الجماعة.؛ فالتصوير الأسطوري لقوة القبيلة لا يعبّر عن واقعٍ ثابت بقدر ما يُجسّد محاولةً لتثبيت حضورٍ مهدَّدٍ بالغياب؛ ذلك أن هذا التمجيد المفرط ليس سوى استدعاءٍ استباقيٍّ للحضور القبليّ قبل أن يغيب. فالقبيلة في هذا المضمار لم تكن مجرد حاضنة اجتماعية، وانما رمزٌ للحضور الجمعيّ الذي يهدّده الزمن والفرقة. فحين يُشاد بقوتها، يُشير الشاعر في الوقت نفسه إلى هشاشتها الكامنة؛ قبل . ومن ثم يتحوّل الغياب من حالةٍ عاطفية إلى وعيٍ جمعيٍّ بتهديد الوجود ذاته.

❖ رمزية الغياب (الظل، الأثر، الصدى، الصمت):

◄ الظل (الحضور المراوغ):

يمثل الظلّ في الصورة الجاهلية علامة الغياب في الحضور. فهو موجودٌ تبعًا للنور، لكنه يذكّر بانطفائه الآتي.

قال زهير بن أبي سلمى:

رأيتُ المنايا خبطَ عشواءَ من تُصبْ تُمِتهُ، ومن تُخطِئْ يُعَمَّرْ فيهرمِ[60]

ففيه تجلّى "الظلّ" في المجاز الكامن في خبط عشواء؛ إذ تمتدّ الحياة كالظلّ ثم تختفي فجأة. ذلك أنّ حضور الإنسان ظلٌّ زائل، والصورة تُجسّد المفارقة بين الامتداد والاختفاء.

◄ الأثر (العلامة الباقية لما مضى):

يعد الأثر في الشعر الجاهلي: الرمز الأكثر دلالةً على الغياب؛ إذ لا وجود له إلا أنّ ما خلّفه قد اختفى؛ إذ يفتتح الشاعر الجاهلي قصيدته، بالحديث عن الأثر — أثر الديار أو أثر المحبوبة — وكأنه يُعيد بناء العالم المندثر من خلال علامة واحدةٍ متبقية. ومنه قول الشاعر:

فتُوضحَ فالمِقراةِ لم يَعفُ رسمُها لِما نسجَتها من جَنوبٍ وشَمالِ[61]

60- زهير بن أبي سُلمى، ديوان زهير بن أبي سلمى، تحقيق فخر الدين قباوة، بيروت: دار المعرفة، 1983، ص 177.

61- امرؤ القيس، ديوان امرئ القيس، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة: دار المعارف، ط4، 1985، ص 117.

ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online

فـ"الرسـم" هو الأثر الذي يقـاوم المحو، عندها يصبح رمـز الذاكرة وملاذ المعنى.

الصدى)صوت الذاكرة):

يتجلّى الغياب سـمعياً عبر رمز الصدى، إذ يتحوّل الصوت إلى أثرٍ سـمعيٍّ لمـا انقضـى؛ ذلك أن الصدى في الشـعر الجاهلـي لا يُعيد القـول ذاته، بـل يُعيد إحسـاس الفقد. ومنه في قـول عنترة:

يا دارَ عبلةَ بالجِواءِ تَكَلَّمي وعِمي صَباحًا دارَ عبلةَ واسْلَمي[62]

فالخطـاب إلى الدار دعوةٌ للصدى، كون الشـاعر يعلـم أن لا جواب يأتيه؛ وانـه يحـاور الفراغ، عندهـا يتحوّل الصدى إلـى مخاطبٍ صامـتٍ يردّ إليه صوت الغياب.

الصمت (اكتمال الغياب):

الصمت هـو آخر مراحـل الغياب فـي البنيـة الصورية. فهو ليـس غيابًا عن القـول، بل غيابًـا داخل القـول؛ إذ يتكثّـف المدلول فـي الفراغ بين الكلمـات. وقد بين عبـد القاهر الجرجانـي: إنّ المعنى قد يكـون أبلغ في السـكوت مـن التصريح بـه[63]، وفي الشـعر الجاهلي، ينتهي المشـهد غالبًـا بصمتٍ دلالـيٍّ يوحي باكتمـال الفقد. ومن ثم يصبـح صورة لغوية للعدم، ومصـدرًا جماليًا لبلاغـة الغياب.

وعليـه تكشـف البنية الصورية في الشـعر الجاهلي عن وعـيٍ فنيٍّ مبكرٍ بـأن الجمـال لا يتحقق بالحضـور، وانمـا بالتعبير عـن الغيـاب؛ ذلك أن الصور التي رسـمها الشـعراء لا تمثّـل الواقع بل تخلقه مـن جديد؛ عبر البحث عن المسـتحيل "اسـتعادة الغائـب بالكلمة"؛ إذ تحـوّل الفقد إلى لغـة، والعدم إلـى إبداع، والغيـاب إلى حضورٍ رمـزيٍّ خالـد؛ فالمحبوبة لا تُـرى إلا في الخيـال، والديـار لا تُلمس إلا بالأثـر، والـذات لا تتكلّم إلا من فـراغٍ داخليٍّ يتسـع كلما حاولـت الكلام.

62- عنترة بن شـدّاد، ديوان عنترة بن شـدّاد العبسـي، تحقيق مهـدي محمد ناصر الدين، بيـروت: دار الكتاب العربي، 1983، ص 94.

63- ظ: الجرجاني، عبد القاهر، دلائل الإعجاز، تحقيق: محمود شاكر، القاهرة: مكتبة الخانجي، 1988، ص 156.

ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online

ومن ثم يغدو الشعر الجاهلي — في مكنونه — بلاغة القول الذي لا يُقال، أي: فنّ الوجود في الغياب[64] .

المبحث الثاني: بلاغة التأويل

1- البنية الوجودية للغياب في الشعر الجاهلي:

يشكّل الغياب في الشعر الجاهلي بنية وجودية شاملة تتجاوز حدود التجربة الجمالية أو الانفعال العاطفي؛ ذلك أنه ليس مجرد موضوعٍ شعريٍّ أو حالةٍ وجدانيةٍ عابرة، وإنما وعيٌ أنطولوجيٌّ بالزمن والمصير؛ فالشاعر الجاهلي ينظر إلى الوجود من خلال الفقد؛ كون الحياة عنده لا تُعرَف إلا عبر ما يُفقد منها، والمعنى لا يتجلّى إلا في لحظة الزوال. عندها يغدو الغياب مفهومًا كونيًّا يتقاطع فيه الذاتي بالجماعي، والزمني بالميتافيزيقي.

ولعل اهم مظاهر الغياب في هذا المضمار تتمثل في:

- **البحث عن الذات والخلود**

يعد الغياب في الشعر الجاهلي بداية البحث عن معنى البقاء؛ ففي عالمٍ تحكمه الصحراء، ويتناوب فيه الموت والحياة بلا ضمان، مثّل الشعر الوسيلة التي يخلّد بها الإنسان نفسه. فهو بديلٌ رمزيٌّ عن الخلود، ووسيلةٌ لكتابة الذات في مواجهة الزوال[65] . ومنه قول الشاعر:

لنا الجفناتُ الغُرُّ يلمعنَ في الضُّحى وأسيافُنا يقطُرنَ من نجدةٍ دمًا[66]

فقد جسد الوجود عبر الذاكرة من خلال فخره بقبيلته في صورة لا

64- Looke at: Paul Ricoeur, Time and Narrative, Vol. 2. Chicago: University of Chicago Press, 1985, p 192.

65- ظ: ابن قتيبة الدينوري، الشعر والشعراء. القاهرة: دار المعارف، 1973، ص 77.

66- الكامل في اللغة والأدب، محمد بن يزيد المبرد، القاهرة: دار الفكر العربي، 1997، ج2/ ص 143.

ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online

تمثل التمجيد فقط، وانما الرغبة في تثبيت وجودهم مقابل الانمحاء؛ إذ يكون اللمعان في "الجفنات" والدم النازف من "الأسياف" إصرار الذات على أن تُرى وتُذكر في مواجهة النسيان. ومن ثم ضمانٌ رمزيٌّ ضد الغياب، فالشاعر يُعيد تعريف نفسه بصفته ذاكرةً لا تزول.
هذا وقد أدرك الشعراء الجاهليون، في لاوعيهم الجمعي، أنّ الخلود لا يتحقق بالوجود الفيزيائي، وإنما بالكلمة المنطوقة التي تتناقلها الأجيال. قال الشاعر:

ألا لا يجهلنّ أحدٌ علينا فنجهلَ فوقَ جهلِ الجاهلينا[67]

فالتحدي الوجودي هنا ليس عنفًا لفظيًا وحسب، بل توكيدٌ شعريٌّ للكينونة؛ ذلك أن الكلمة تُخلِّد الفعل، والصوت يُبقي الاسم حاضرًا بعد الغياب. وعليه يصبح الشعر الجاهلي وسيلةً لكتابة الذات في مواجهة العدم "فعل خلودٍ لغويٍّ"

البعد الفلسفي للشعر الجاهلي

يظهر البعد الفلسفي في الشعر الجاهلي لا بوصفه تنظيرًا عقليًّا أو مذهبًا معرفيًّا، وانما كونه تأمّلاً وجوديًّا فطريًّا ينبع من وعي الشاعر بالمصير الإنساني، والزمن، والعدم؛ فهو يدرك أنّ الحياة تسير نحو الغياب، وأنّ الزمن يأكل كل ما حوله؛ إلاّ أن هذا الإدراك لا يدفعه إلى اليأس، بل إلى البحث عن معنى داخل الغياب ذاته. عندها يتحوّل الشعر الجاهلي إلى تفكيرٍ شعريٍّ في ماهية الغياب والحضور، إذ تتقاطع التجربة الجمالية مع البصيرة الفلسفية في رؤية واحدة للوجود والزوال. ومنه قول الشاعر:

أقيموا بني أمي صدورَ مَطيّكمْ فإنّي إلى قومٍ سِواكم لأميلُ[68]

67- عمرو بن كلثوم، ديوان عمرو بن كلثوم. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة: دار المعارف، 1971، ص 188.

68- الشنفرى، ديوان الصعاليك. تحقيق: نوري القيسي، بغداد: دار الحرية، 1979، ص 95.

ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online

إذ اختار الغياب بوصفه موقفًا فلسفيًا من العالم؛ ذلك أن الهجر ليس خسارة، وانما تحرّر من الثبات نحو معنى أعمق للوجود؛ فالرحيل - في البيت - ليس مجرّد انتقال مكاني، بل خروجٌ وجوديٌّ من دائرة الانتماء. ومن ثم يتحوّل الغياب إلى تجربة وعيٍ، لا إلى نقيض الحياة.
هذا ويعيد الشاعر لبيد بن ربيعة في قوله:

وَما المَرءُ إِلاّ كَالشِهابِ وَضَوئِهِ يَحورُ رَماداً بَعدَ إِذ هُوَ ساطِعُ[69]

بناء الزمن في صورةٍ كونيةٍ دقيقة؛ إذ يشبّه المرء بـ الشهاب الذي يسطع في ظلمة السماء ثمّ ينطفئ رمادًا؛ مجسّدا رؤية فلسفية عميقة للوجود والعدم؛ فالضوء رمز للحياة والفاعلية، والرماد رمز للنهاية والغياب. لكنّ هذا الإدراك الفلسفي لا يُفضي إلى العبث، بل إلى تقديس اللحظة المضيئة قبل أفولها. إنه وعيٌ بأنّ الغياب لا يُلغى، بل يُحتفى به بوصفه جزءًا من اكتمال التجربة الإنسانية.
فضلا عن ذلك فقد يكون الحضور نفسه ليس إلا شكلاً من أشكال الغياب؛ فحين يصف الشاعر الفرس أو السيف أو المطر، فهو يدرك أنّ ما يصفه زائلٌ، وأنّ اللغة لا تمسك إلا ظله. ومنه قول الأعشى:

رَحَلَتْ سُمَيَّةُ غُدْوَةً أجمَالُها غَضْبَى عَلَيْكَ فَمَا تَقُولُ بَدَا لَهَا[70]

إذ يُفضي الحضور المؤقت للمحبوبة فورًا إلى الفقد، مما يحوّل الوصف إلى تأملٍ في هشاشة الوجود؛ فالرحيل في الصباح (غدوةً) يرمز إلى بدايات الفقد، أما "غَضبى عليك" فتمنح الصورة بعدًا نفسيًا حادًا يعكس اضطراب العلاقة بين الشاعر ومحبوبته. عندها يتحوّل الغياب إلى فعلٍ جماليٍّ ووجدانيٍّ، إذ يترك الشاعر معلّقًا بين الحضور والغياب، لا يدري "ما بدا لها"، أي ما غيّر مشاعرها فجأة، ذلك ما يجعل البيت نموذجًا لتجسيد بلاغة الغياب الغامض في الشعر الجاهلي.

69- لَبيد بن رَبيعة، ديوان لبيد بن ربيعة العامري، تحقيق نوري القيسي، بغداد: دار الرشيد للنشر، 1980، ص 156.
70- الأعشى ميمون بن قيس، ديوان الأعشى الكبير، تحقيق محمد حسين، القاهرة: دار المعارف، 1961، ص 87 .

ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online

وعليه يصبح الغياب هو الحقيقة الوحيدة الثابتة في عالمٍ زائل .

العمق الوجداني:

قد يقرأ الغياب في الشعر الجاهلي بوصفه تعبيرًا عن لاوعيٍ جمعيٍّ، إذ تتجلّى فيه رمز الذات المظلّلة، والحنين المكبوت فضلا عن الموت والانبعاث. فمن الاول ما ذهب اليه كارل يونغ وهو انّ الإنسان يحمل في لاوعيه "ظلاً" يمثل الجزء المكبوت من ذاته[71] ؛ وهو ما يظهر في الشعر الجاهلي عبر صور الرحيل، والوحدة، والمناجاة مع الأطلال؛ فالشاعر لا يخاطب المكان الخارجي، وانما الجزء الغائب من ذاته. ومنه قول الشاعر :

وما أنا إلا من غَزِيَّةَ إن غوتْ غويتُ، وإن تَرشدْ غَزِيّةُ أرشُدِ[72]

فالذات منقسمة بين وعيٍ جمعيٍّ (القبيلة) ووعيٍ فرديٍّ يبحث عن استقلاله. أي ان "الأنا" تواجه "ظلّها"، ذلك ان البيت يقوم على مقابلةٍ لفظيةٍ ودلاليةٍ بين "غوت" و"ترشد"، تُبرز المفارقة بين الانحراف والهداية، وتُحوّل المعنى الاجتماعي إلى صورة وجودية تُفصح عن ذوبان الذات في الكلّ الجمعي، بوصفه تمثيلاً للغياب الفردي داخل الحضور القبلي؛إذ يفقد الشاعر استقلاله الشعوري ليذوب في هوية الجماعة،فيغدو وجوده مرهونًا بوجودها، وغيابه تابعًا لغيابها.
عندها يتحقق الغياب في الداخل قبل أن يظهر في الخارج[73] .
ومن الثاني، يمكن قراءة صورة المحبوبة الغائبة في الشعر الجاهلي بوصفها تجسيدًا للرغبة المؤجَّلة؛ ذلك أن المحبوبة ليست امرأة محدّدة، وانما رمزٌ للرغبة التي لا تُنال، ومنه قول عبيد بن الأبرص:

71- Looke at: Jung, Carl. The Archetypes and the Collective Unconscious. Princeton: Princeton University Press, 1968, p 88.

72-دريد بن الصِّمّة، ديوان دريد بن الصمة، تحقيق فخر الدين قباوة، بيروت: دار الكتاب العربي، 1994، ص 67.

73-ظ: المصدر السابق.

ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online

أقفرَ من أهلهِ مَلْحوبُ فالقطبيّاتُ فالذَّنوبُ[74]

فقد أوحى التتابع المكاني الجاف بالفراغ الوجداني، إذ تحوّل الغياب إلى طاقةٍ مكبوتةٍ تستحيل شعرًا[75]
ذلك انها الرغبة التي تُنتج المعنى مثلما تُنتج الأسى.
اما الثالث (رمز الموت والانبعاث) فيمثل رحلة النزول إلى باطن الذات تشبه طقس الموت والانبعاث في الميثولوجيا؛ لأن الشاعر يهبط الى أعماق الذاكرة عندما يفتتح قصيدته بالبكاء على الأطلال، ليعود منها بالقصيدة ، أي بالخلود الرمزي.
ذلك ما يجعل الغياب عند الجاهليين تجربة روحية للتجدّد، لا نهايةً للوجود[76] .
وعليه فإن الغياب في الشعر الجاهلي بوصفه أفقًا وجوديًّا مركبًا تتداخل فيه الفلسفة بالشعور، والرمز بالأسطورة، والوعي باللاوعي؛ فالشاعر لم يكن يهرب من الغياب، وانما كان يؤسّس ذاته عبره؛ لذا فإنّ القصيدة الجاهلية ليست رثاءً للحضور، بل احتفاءٌ ببلاغة الفقد؛ كونه لم يقف على الأطلال ليبكي، وانما ليقول: أنا كنت هنا، إذ تبقى كلماته تُعيد تمثيل حضوره بعد ان يفنى جسده، عندها يتحقق الخلود في الغياب نفسه.
ومن ثم يغدو الغياب في مكنونه تجسيدًا للوجود الأعلى، إذ تتقاطع اللغة بالخلود، والقصيدة بالقدر، والإنسان بالعدم[77] .

2- الغياب والحضور تأويليا:

لعل من أكثر الثنائيات تأثيرًا في الفكر التأويلي الحديث، ثنائية الغياب والحضور؛ فالنص يُعد فضاءً كونه لا يقدّم المعنى مباشرة، وإنما يتركه في منطقةٍ وسطى بين ما يظهر وما يتوارى.

74- عبيد بن الأبرص، ديوان عبيد بن الأبرص، تحقيق فخر الدين قباوة، بيروت: دار الفكر العربي، 1983، ص 55.

75- Looke at: Freud, Sigmund. The Interpretation of Dreams. New York: Basic Books, 1953, p 173.

76- ظ: أبو ديب، كمال. جدلية الخفاء والتجلي. بيروت: دار الآداب، 1981، ص

77- ظ: ريكور، بول. الزمان والسرد. ترجمة سعيد الغانمي، بيروت: المركز الثقافي العربي، 1999، ص 240.

ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online

وتتجلى هذه الثنائية داخل بنية القصيدة في العصر الجاهلي؛ ذلك أنّ الطلل، والرحيل، والمخاطَب الغائب، والذات المتردِّدة بين الماضي والحاضر: عناصر تجعل النص فضاءً يتصارع فيه الحضور (المذكور) مع الغياب (المسكوت عنه). عندها يصبح النص الجاهلي – من منظور غادامير وريكو – «حدثًا للمعنى» لا يتحدد في زمنه الأول، بل يُعاد إنتاجه عبر القراءة، إذ يولد الحضور من داخل الغياب نفسه[78].

ومنه عندما يكون الغياب :

- محفِّزًا لولادة الحضور؛ إذ تظهر إحدى أبرز آليات التوليد التأويلي، ذلك حين يقدّم الشاعر الغياب بوصفه شرطًا لظهور الحضور. ومنه قول الشاعر:

بَانَتْ سُعادُ فَقَلْبِي اليَوْمَ مَتْبُولُ مُتَيَّمٌ إِثْرَهَا لَم يُفْدَ مَكْبُولُ[79]

إذ جعل الغياب "بانت سعاد" شرطًا لظهور الحضور العاطفي: أي ان الغياب يحرك الحضور العاطفي؛ فغياب سعاد فجّر حضورًا شديدًا في قلب الشاعر: كون القلب «مَتْبول» أي مصاب، جريح، وهذا الحضور الانفعالي لم يظهر إلا بعد الغياب. ويدل قوله" متيّم إثرها" على أنّ الحضور الحقيقي هو أثر الغياب لا وجود المحبوبة؛ فهي غابت جسدًا، الا ان حضورها اشتدّ أثرًا ودلالة؛ لانه " مكبُول"أي مقيد لا ينفك، ومن ثم فان الحضور لا يقوم بذاته وانما من يتولد من جرح الغياب .

- أثرًا من الحضور

يظهر الحضور في الشعر الجاهلي - غالبًا - كأثرٍ لا كواقعٍ قائم، وكأنّ الشاعر يدرك أن الحضور ذاته هشّ، لا يثبت إلا بالتذكّر، نحو قول الشاعر:

أَمِن آلِ مَيَّةَ رائِحٌ أَو مُغتَدِ عَجْلانَ ذا زادٍ وَغَيْرَ مُزَوَّدِ[80]

78- ظ: غادامير، هانس جورج. الحقيقة والمنهج. ترجمة فؤاد زكريا، القاهرة: دار الفكر العربي، 1993، ص 73.

79- كعب بن زهير. ديوان كعب بن زهير. تحقيق أحمد حسن بسج، القاهرة: دار المعارف، 1960، ص 15.

80- النابغة الذبياني. ديوان النابغة الذبياني. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة: دار المعارف، 1963، ص 51.

ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online

فقد اعاد الاستفهام الدال على غياب القوم في «أمِن آلِ مَيَّةَ...؟» حضورهم كونه نتيجة البحث عن الغائب الذي اوجد حضورا منقوصا ؛ لأنه اثر لغائب لا يعود؛ لذا تبعته حركة بلا وصول في "رائح" و"مغتد" (الآتي والغادي)؛ لانها الأثر الذي يبقي الغياب حيًا؛ فالسائر لا يرى أحدًا، لكنه يواصل المسير، الذي يتخلله اضطرابا وجوديا جسده في صورتي "ذا زاد" و"غير مزود" فهو حضور داخلي ناتج عن فقد خارجي، ليتحول عندها الغياب إلى قوة محرّكة.

ناهيك عن ذلك فان للتأويل بين المسكوت عنه والمُصرّح به دور في ذلك؛ فالنص الجاهلي يشتغل على منطقة مسكوت عنها لا تقل أهمية عمّا يُقال. نحو قول الشاعر:

وَقَدْ أغتَدي والطَّيْرُ في وُكُناتِها بِمُنْجَرِدٍ قَيْدِ الأوابِدِ هيكلِ[81]

فالنص يُخفي خلف الحضور الظاهر غيابًا لا يُذكر: غياب المستقر، غياب الحبيبة، غياب البيت، فالحركة ليست اختيارًا، بل هربًا مسكوتًا عنه؛ ذلك ان إظهار صورة الفارس القوي يخفي هشاشة داخلية، فالفعل الحركي ليس امتدادًا للقوة بل غطاءً لفراغٍ لا يُقال. وانّ الحضور المصرَّح به (الفروسية)، ليس سوى محاولة لستر غيابٍ غير مُعلن عن الرغبة والاستقرار والانتماء. ومن ثم هو قناعٌ لغيابٍ لا يُفصح عنه الشاعر، عندها يتشكل المعنى الحقيقي من هذا التوتر بين ما يُقال وما لا يُقال. ولهذا تعدّ قراءة البيت قراءةً بينية، تستخرج من المسكوت عنه دلالات أشدّ عمقًا من ظاهر القول.

وعليه فانّ ثنائية الغياب والحضور ليست مجرد ثنائية موضوعية، بل هي بنية دلالية وآلية إنتاج للمعنى .

فالأول ليس فقدًا، والثاني ليس وجودًا مكتملاً، وانما حالتان معرفيتان تُعيدان تشكيل النص في ضوء القراءة.

ومن ثم يغدو الشعر الجاهلي فضاءً ديناميًا، فيُنتِج دلالته عبر التوتر الإبداعي بين ما يظهر وما يختفي.

81- امرؤ القيس. ديوان امرئ القيس. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة: دار المعارف، 1958، ص 133.

ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online

المبحث الثالث: بلاغة التأثير العاطفي:

البنية الوجدانية للغياب:

يمثل الغياب في الشعر الجاهلي نقطة التقاء بين الشعور واللغة، فهو لم يكن مجرّد فكرةٍ ذهنية أو صورةٍ بلاغية، وانما تجربة وجودية تتولّد في قلب الذات وتنعكس في نسيج القول الشعري؛ ذلك أن الحنين، والافتقاد، والقلق، والاغتراب، ليست مظاهر عرضية، بل هي المحرّكات العميقة للقول الشعري الجاهلي. لذا يعد الغياب منبع الحنين والافتقاد والقلق الوجودي:

فمن الأول: الحنين إلى الماضي: ذلك ان الشعر الجاهلي يعبر عن حنينٍ عميقٍ إلى ماضٍ غائبٍ يُستعاد من خلال الذاكرة لا الواقع. لا لأنه تذكّر فحسب، وانما إرادة استعادة ما لا يُستعاد. ومنه قول الشاعر:

أَقِيمُوا بني أمي، صُدُورَ مَطِيِّكُمْ فَإِنِّي إلى قَومٍ سِواكُمْ لأميلُ[82]

ففي مدلوله تجلٍّ الحنين إلى الجماعة الغائبة، وزمن الانتماء بعدما انقطع؛ مما يمثل جوهر الغياب، إذ يولّد شعورًا بالعجز أمام الفقد، ويدفع الشاعر إلى القول كنوعٍ من التعويض الرمزي عن الغياب المادي.

ومن الثاني: الافتقاد العاطفي: إذ تظهر في كثير من القصائد الجاهلية نبرة الفقد الشخصي، عندما يتحوّل الغياب إلى ألمٍ عاطفي. قال الشاعر:

ولقد ذكرتُكِ والرماحُ نَواهِلٌ منّي، وبيضُ الهندِ تقطرُ من دَمي[83]

82- الشنفرى، ديوان الصعاليك، تحقيق: نوري القيسي، بغداد: دار الحرية، 1979، ص 54.

83- عنترة بن شدّاد، ديوان عنترة بن شدّاد العبسي، تحقيق مهدي محمد ناصر الدين، بيروت: دار الكتاب العربي، 1983، ص 87.

ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online

إذ جسّد الرغبة في استعادة لحظةٍ ماضيةٍ محاطةٍ بالألفة، وهو ما يشكّل الافتقاد بمعناه الوجداني الدقيق؛ ومن ثم فالغياب لا يُرثى فقط، وانما يُعاش في كل لحظةٍ من الحاضر؛ لأنّ الذاكرة تحوّل الغائب إلى حضورٍ مؤلم.

اما الثالث فهو القلق الوجودي بوصفه ظلاً للغياب؛ كونه يمثل الإحساس بالتهديد أو الفناء، ذلك أنه الوجه النفسي العميق للغياب في الشعر الجاهلي. قال الشاعر:

ألا كُلُّ شَيءٍ ما خَلا اللّهَ باطِلٌ وكُلُّ نَعيمٍ لا مَحالَةَ زائِلُ[84]

فاستعماله لـ «لا محالة» يكشف عن استسلامٍ واعٍ للقدر، إذ يتحول الحضور إلى لحظة مؤقتة بين غيابين:

غياب ما قبل الوجود، وغياب ما بعده. لانه ليس غياب المحبوبة أو القبيلة فحسب، بل غياب العالم ذاته. فهو لا يصف تجربة فردية، بل وعيًا فلسفيًا مبكرًا بالعدم؛ كأنّ الشاعر الجاهلي يُدرك أن كل ما يراه هو أثر زائل، وأنّ اللغة نفسها - بوصفها فعل حضور - ليست إلا محاولة لمقاومة الغياب المحتوم.

فضلا عن ذلك فقد ينتج الغياب عن:

- **العلاقة بين اللغة والانفعال:** فاللغة وسيلة للبوح عن الفقد – في الشعر الجاهلي - لا أداة للوصف فهي وعاء للشعور. فعندما يعبّر الشاعر عن غيابه، فهو لا يصف حالة، بل يُنتجها لغويًا. نحو قول الشاعر:

ذَهَبَ الَّذِينَ يُعَاشُ فِي أَكْنَافِهِمْ وَبَقِيتُ فِي خَلَفٍ كَجِلْدِ الأَجْرَبِ[85]

إذ نقل باللغة الإحساس بالانقطاع والوحدة؛ فالتكرار الصوتي لحرف الجيم والباء في "جلد الأجرب" يُحدث وقعًا نفسيًا خشنًا، يفصح عن

84- لَبيد بن رَبيعة، ديوان لبيد بن ربيعة العامري، تحقيق نوري القيسي، بغداد: دار الرشيد للنشر، 1980، ص 76.

85- المصدر نفسه، 117.

ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online

الانفعال الحاد الناتج عن الفقد.

ومن ثم فالشاعر لا ينقل شعوره بالغياب فحسب، وانما يخلقه صوتيًا عبر تكرارات وتقطيعاتٍ تنقل أثر الحزن إلى المتلقي.

■ **التوتر اللغوي بوصفه انعكاسًا للانفعال:** إذ يُلاحظ في بعض القصائد توتّر لغوي ناتج عن اضطراب الشعور، نحو قول الشاعر:

إذا القَومُ قالوا مَن فَتىً؟ خِلتُ أنّني عُنيتُ، فلم أَكسَل، ولم أتبَلَّدِ[86]

فقد كشف دخول الشرط بداية عن استعداد نفسيّ متوتّر؛ ذلك أن الشاعر يعيش في حالة ترقّب دائم لحكم الجماعة عليه، مما يجعل اللغة منذ البداية لغة تحدٍّ واستنفار؛ فالأفعال الثلاثة: خِلتُ – لم أَكسَل – لم أتبَلّد

تشي بحركة داخلية مضطربة تتراوح بين الظنّ والفعل والنفي، أي أن الانفعال يُدار نحويًا عبر التوتر بين الإيجاب والنفي، وهي خاصية بلاغية تعبّر عن تقلّب الذات بين الشكّ والثقة. فخلف نبرة الفخر، يختبئ خوف الشاعر من الغياب عن ذاكرة قومه؛ فهو يعلن وجوده اللغوي كمن يقهر الغياب بالصوت. إذ أن كل نفي في البيت ("لم أَكسَل، لم أتبَلّد")؛ هو مقاومة بلاغية للعدم، أي أن التوتر اللغوي هنا مرآة لانفعال الوجود المهدَّد.

■ **من اللغة إلى الانفعال المتجدّد:** فكلما تكرّر القول الشعري عن الغياب، تجدد الشعور به. ذلك أن اللغة لا تطفئ الألم، بل تغذّيه بإعادة استحضاره؛ لذا يخلق الشعر الجاهلي دائرة وجدانية مغلقة:

الغياب يولّد الانفعال ← الانفعال ينتج اللغة ← اللغة تستدعي الغياب.

فهذه الدورة الشعورية تؤكّد أن الغياب ليس موضوعًا شعريًا

86- طرفة بن العبد، ديوان طرفة بن العبد، تحقيق مهدي محمد ناصر الدين، بيروت: دار الكتاب العربي، 1984، ص 22.

ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online

فحسب، وانما محرّك بنيوي للوجدان الجاهلي.
وعليه لا يُعد الغياب في الشعر الجاهلي فراغًا بل امتلاءٌ بالحنين والانفعال والبحث عن الذات؛ فهو يُعبّر عن الإنسان العربي القديم وهو يواجه وجوده المهدّد بالزوال، ويحاول عبر اللغة أن يمنح فقده معنى؛ كون القصيدة عنده الملاذ النفسي الذي يعيد عبره التوازن إلى ذاته القلقة، وكان الغياب، لا الحضور، هو ما منحه الطاقة الخلاّقة للإبداع. ومن ثم فإنّ البنية الوجدانية للغياب تمثّل العمق الشعوري الذي يتغذّى عليه البناء البلاغي، والتأويلي، والنفسي، ليكتمل بذلك الوعي الجمالي بالشعر الجاهلي بوصفه تجربة إنسانية شاملة.

جمالية التلقي والتأثر:

لا يعد النص الأدبي، كيانًا مغلقًا يعبّر عن تجربة الشاعر وحده، بل فعلًا تواصليًا يقوم على التفاعل بين النص والمتلقي؛ فالمعنى لا يُولد في النص ذاته، بل في المسافة الجمالية بين النص والقارئ[87] ومن ثم فإنّ "بلاغة الغياب" في الشعر الجاهلي لا تُفهم إلا من خلال أثرها في المتلقي؛ فالغياب يوقظ المخيّلة، ويستثير الانفعال، ويفتح النص على احتمالاتٍ غير نهائية من الفهم والتأويل: عندها يكون:
= **محفّزًا للتأويل:** إذ يكون الشعر الجاهلي بالغياب تلك الفجوات التي تدعو المتلقي إلى ملئها؛ فالقصيدة الجاهلية لا تُقدّم المعنى جاهزًا، بل تتركه معلّقًا في فضاء الأسئلة. منه قول الشاعر:

لَعَمْرُكَ إنَّ الموتَ ما أخطَأَ الفَتَى لَكَالطِّوَلِ المُرْخَى وثِنْيَاهُ باليَدِ[88]

فهو لم يصرح بالغائب وإنما يتحدّث عن "الفتى" بصيغة عامة؛ مما خلق غيابًا شخصيًا يَستفزّ القارئ ليملأه:
من هو الفتى؟ ما قصته؟ ما المناسبة؟ فضلا عن التصوير القائم

87- Looke at: Jauss, Hans Robert. Toward an Aesthetic of Reception. Minneapolis: University of Minnesota Press, 1982, p 42.

88- طرفة بن العبد، ديوان طرفة بن العبد، تحقيق مهدي محمد ناصر الدين، بيروت: دار الكتاب العربي، 1984، ص 73.

ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online

على استعارة غير مكتملة: الموت كالطول المرخى، لكن لا يذكر بمن يمسك الحبل، ولا كيف ولا متى يلتقط الفتى، فالبيت لم يقدم سردا بل ايحاء؛ مما يستدعي القارئ الى اكمال الصورة بنفسه.

= **الغياب والاستجابة الانفعالية:** ان النصوص التي تحتوي على فراغاتٍ وغموض - بحسب آيزر - هي التي تُحدث استجابة جمالية أقوى، لأن القارئ يُضطرّ إلى المشاركة في ملء تلك الفجوات[89] نحو قول الشاعر:

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَبِيتَنَّ لَيْلَةً بوادي الغضَى أُزجي الِقلاصَ النَّوَاجِيَا؟ [90]

إنّ جمال البيت ليس في الصورة فحسب، بل في الفراغات الدلالية التي يتركها الغياب في نفس السامع؛ مما يُنتج استجابة انفعالية قويّة عند القارئ تدعوه إلى المشاركة في تأويل النص.

= **الغياب كأفقٍ للتوقّع**

قد يدخل المتلقي إلى النص وهو يحمل تصوّراتٍ مسبقة تتبدّل أثناء القراءة[91] ، وفي الشعر الجاهلي، تتبدّل توقعات المتلقي باستمرار بسبب الغياب المفاجئ للحضور المنتظر. نحو قول الشاعر :

ذَهَبَ الَّذِينَ يُعَاشُ فِي أَكْنَافِهِمْ وَبَقِيتُ فِي خَلَفٍ كَجِلْدِ الَأجْرَبِ[92]

عندما يسمع المتلقي الشطر الأول، يتوقّع أن يتبعه فخر أو وفاء، الا أن الشطر الثاني يخالف التوقّع بانتقاله إلى صورة منفّرة، فتتولّد صدمة جمالية من الغياب المزدوج: غياب الأحبة، وغياب النبل.

فالغياب كحوار مفتوح بين النص والمتلقي: لا يعد انقطاعا عن

89- Looke at: Iser, Wolfgang. The Act of Reading: A Theory of Aesthetic Response. Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1978, P 90.

90- مالك بن الريب، ديوان مالك بن الريب، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1960، ص 48.

91- ظ: ياوس، هانس روبرت، جمالية التلقي. ترجمة: سعيد بنكراد، الدار البيضاء: أفريقيا الشرق، 2001، ص 133.

92- لَبيد بن رَبيعة، ديوان لبيد بن ربيعة العامري، تحقيق نوري القيسي، بغداد: دار الرشيد للنشر، 1980، ص 214.

ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online

التواصل، وانما وسيلة تواصل أعمق؛ فما لا يُقال في النص يُقال في ذهن القارئ ، عندها يتكوّن ما يسميه ياوس بـ" الحوار التاريخي بين النصوص والقرّاء"[93] ؛ ففي كل قراءة جديدة للقصيدة الجاهلية، يُعاد بناء الغياب من جديد، ويتحوّل النص إلى فضاء حواريٍّ مستمرٍّ بين الماضي والحاضر، وبين الشاعر الذي كتب بصمتٍ، والقارئ الذي يُنصت إلى غياب الكلمات.

وعليه فالغياب هو العنصر الأكثر فاعلية في تواصل النص الجاهلي مع المتلق؛ كونه لا يقدّم معنى جاهزًا، بل يستفزّ المتلقي لابتكار المعنى من داخله. فهو الطاقة الجمالية التي تُبقي النص حيًّا، لأنه يخلق علاقة وجدانية مفتوحة بين الشاعر والقارئ، ويجعل من الشعر الجاهلي نصًا خالدًا قادرًا على التجدد مع كلّ قارئٍ جديد. وهكذا، يصبح الغياب جسرًا شعوريًا ومعرفيًا يصل بين الأزمنة، ويحوّل التجربة الجاهلية من حنينٍ إلى ماضٍ ضائع إلى تجربة إنسانية متجددة في كل عصر .

93- ياوس، هانس روبرت، التجربة الجمالية والتأويل الأدبي. ترجمة: سعيد الغانمي، بغداد: دار المأمون، 1995، ص 221.

ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online

الخاتمة

لعل من اهم النتائج التي تم التوصل اليها هي:

- أنّ بلاغة الغياب ليست عنصرًا ثانويًا في الشعر الجاهلي، بل هي الجوهر البنيوي والوجداني الذي يقوم عليه هذا الشعر، سواء في صوره أو زمانه أو صوته أو دلالته.
- يمثل الغياب التحوّل في التجربة الجاهلية من حدثٍ موضوعيٍّ إلى بنيةٍ رمزيةٍ وتأويليةٍ تعكس علاقة الإنسان العربي بالعالم، وبالزمن، وبالوجود نفسه.
- الغياب بنية مركزية في الشعر الجاهلي تتجلّى في المكان والزمان والصوت والصورة والوجدان. فكلّ مكوّن شعري فيه يتغذّى من فكرة الفقد والانفصال والحنين.
- الغياب المكاني (الديار، الرحيل، الأثر) ليس مجرد خلفية سردية، بل هو تمثيل رمزي لاغتراب الذات في مواجهة صحراء الوجود.
- الغياب الصوتي والإيقاعي يعمل كأداة بلاغية لإيصال الانفعال غير المنطوق، عبر التكرار، والوقفات الصامتة، والانقطاع الموسيقي الذي يترجم الحنين والوحشة.
- في البنية الوجودية، يتحوّل الغياب إلى بحثٍ عن الذات والخلود، فيكشف الشعر الجاهلي عن وعيٍ فلسفيٍّ مبكرٍ بالموت والعدم، قريب من مفاهيم الوجودية الحديثة.
- في جمالية التلقي، يظهر الغياب كطاقة تفاعلية بين النص والمتلقي، إذ يُستقبل النص الجاهلي بوصفه حالة وجدانية مفتوحة تستفزّ التأمل والانفعال في آنٍ واحد، سواء لدى المتلقي القديم أو المعاصر. أي مساواة الاستقبال عبر كينونة العواطف مع تباين الاستجابة تبعا للجانب المعرفي قديما وبحسب التعليم والتعلم الجيد والتجربة الانسانية حديثا.

ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online

المصادر والمراجع العربية:

- ابن رشيق القيرواني، العمدة في صناعة الشعر ونقده. بيروت: دار الجيل، ١٩٨١.
- ابن طباطبا العلوي، عيار الشعر. تحقيق: عباس هاشم، بيروت: دار الفكر العربي، ١٩٩٧.
- ابن فارس، مقاييس اللغة، تحقيق: عبدالسلام هارون، ط٣، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٩.
- ابن قتيبة الدينوري، الشعر والشعراء. القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٣.
- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ١٩٩٧.
- أحمد مطلوب، البلاغة العربية: تطور وتاريخ. بغداد: دار الشؤون الثقافية، ١٩٩٠.
- الأعشى ميمون بن قيس، ديوان الأعشى الكبير، تحقيق محمد حسين، القاهرة: دار المعارف، ١٩٦١.
- امرؤ القيس، ديوان امرئ القيس، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة: دار المعارف، ط٤، ١٩٨٥.
- جاك دريدا، الكتابة والاختلاف، ترجمة: كمال أبو ديب،الطبعة الأولى، دار الكلمة، بيروت، لبنان، ١٩٨٦.
- دريد بن الصِّمّة، ديوان دريد بن الصمة، تحقيق فخر الدين قباوة، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٩٤.
- رولان بارت، "لذة النص"، ترجمة: محمد برادة، دار التنوير، بيروت، ١٩٨٧.
- ريكور، بول. الزمان والسرد. ترجمة سعيد الغانمي، بيروت: المركز الثقافي العربي، ١٩٩٩.
- زهير بن أبي سُلمى، ديوان زهير بن أبي سلمى، تحقيق فخر الدين قباوة، بيروت: دار المعرفة، ١٩٨٣.
- السكاكي، مفتاح العلوم، تحقيق: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٩٨٧.
- سيغموند فرويد، تفسير الأحلام، ترجمة: مصطفى صفوان،الطبعة

ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online

الثانية، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ١٩٩١.
- الشنفرى، ديوان الصعاليك. تحقيق: نوري القيسي، بغداد: دار الحرية، ١٩٧٩.
- صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٢.
- طرفة بن العبد، ديوان طرفة بن العبد، تحقيق مهدي محمد ناصر الدين، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٨٤.
- عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، تحقيق: محمود شاكر، دار المدني، جدة، ط١، ١٩٩١.
- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق: محمود محمد شاكر، الطبعة الثانية، دار المدني، جدة، المملكة العربية السعودية، ١٩٩٢.
- عبد الله الغذامي، الخطيئة والتكفير: من البنيوية إلى التشريحية. بيروت: المركز الثقافي العربي، ١٩٩٧.
- عبد الملك مرتاض، بلاغة الخطاب الشعري. الجزائر: منشورات دار الأمة، ٢٠٠٢.
- عبيد بن الأبرص، ديوان عبيد بن الأبرص، تحقيق فخر الدين قباوة، بيروت: دار الفكر العربي، ١٩٨٣.
- عمرو بن كلثوم، ديوان عمرو بن كلثوم التغلبي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٦.
- عنترة بن شدّاد، ديوان عنترة بن شدّاد العبسي، تحقيق مهدي محمد ناصر الدين، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٨٣.
- غادامير، هانس جورج. الحقيقة والمنهج. ترجمة فؤاد زكريا، القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٩٣.
- غاستون باشلار، جماليات المكان، ترجمة: غالب هلسا،الطبعة الخامسة، دار دمشق، دمشق، سوريا، ٢٠٠٦.
- فولفغانغ إيزر، فعل القراءة: نظرية في الجماليات التأويلية، ترجمة: عبد الرحمن أيوب،الطبعة الأولى، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء – المغرب، ١٩٩٥.
- الفيروزآبادي، القاموس المحيط، تحقيق: محمد نعيم العرقسوسي،

مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٤، ٢٠٠٥.
- قدامة بن جعفر، نقد الشعر، تحقيق: كمال مصطفى، القاهرة: دار الكتب، ١٩٥٢.
- كارل غوستاف يونغ، الإنسان ورموزه، ترجمة: أحمد عبد الله، الطبعة الأولى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، ١٩٩٣.
- الكامل في اللغة والأدب، محمد بن يزيد المبرد، القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٩٧.
- كعب بن زهير. ديوان كعب بن زهير. تحقيق أحمد حسن بسج، القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٠.
- كمال أبو ديب، جدلية الخفاء والتجلي: دراسة في بنية الشعر العربي. بيروت: دار الآداب، ١٩٨١.
- لَبيد بن رَبيعة، ديوان لبيد بن ربيعة العامري، تحقيق نوري القيسي، بغداد: دار الرشيد للنشر، ١٩٨٠.
- مالك بن الريب، ديوان مالك بن الريب، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٠.
- النابغة الذبياني. ديوان النابغة الذبياني. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٣.
- ياوس، هانس روبرت، التجربة الجمالية والتأويل الأدبي. ترجمة: سعيد الغانمي، بغداد: دار المأمون، ١٩٩٥.
- ياوس، هانس روبرت، جمالية التلقي. ترجمة: سعيد بنكراد، الدار البيضاء: أفريقيا الشرق، ٢٠٠١.

المصادر والمراجع الانجليزية

- Freud, Sigmund. The Interpretation of Dreams. New York: Basic Books, 1953.
- Georg Lukács, The Theory of the Novel, MIT Press, 1971.
- Iser, Wolfgang. The Act of Reading: A Theory of Aesthetic Response. Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1978.
- Jauss, Hans Robert. Toward an Aesthetic of Reception. Minneapolis: University of Minnesota Press, 1982.
- Jung, Carl. The Archetypes and the Collective Unconscious. Princeton: Princeton University Press, 1968.
- Paul Ricoeur, Interpretation Theory: Discourse and the Surplus of Meaning, Texas Christian University Press, 1976.
- Obaid S Hanan. Almusawi A Mohammed.Nasser A (2023). The reality of the responsibility of the digital media marketing and its role in enhancing societal security for students of Jordanian public universities and development methods.. INTERNATIONAL MINNESOTA JOURNAL OF ACADEMIC STUDIES, (ISSUE:1), (VOL: 2), ,Pp:40-15.
- Paul Ricoeur, Time and Narrative, Vol. 1, Chicago: University of Chicago Press, 1984.
- Roland Barthes, The Rustle of Language, University of California Press, 1986.
- Roland Barthes, Writing Degree Zero. New York: Hill and Wang, 1968.

ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online

الجامعة الإسلامية بمنيسوتا

Islamic University of Minnesota

المركز الرئيسي IUM